«نوستالجيا.. نيو ضاحية»

كارل كوسا

هل يعلم شباب اليوم أن «طريق المطار» كان، سابقاً، من المنازه العريقة ككورنيش الروشة والرملة البيضاء.. أوأن «الكوكودي» كانت من أهم المناطق السياحية المزدحمة بالمقاهي والمطاعم الفخمة، التي لم يكن يرتادها سوى ميسوري الحال؟!

من «ساحل النصارى»، ولاحقاً «ساحل المتن الجنوبي»، وصولاً الى «ضاحية بيروت الجنوبية»، التي باتت تعرف منذ الثمانينات، شعبياً، باسم «الضاحية». تسميات عدة تناوبت على تقمص «٢٨ كيلو متراً مربعاً».. قد لا تكون الـ (New _ Dahieh) (بأشكالها المقترحة كافة) آخرها.

السياسة وأشياء أخرى «تنقب» في الذاكرات الجَماعية، متعددة الروايات والأيديولوجيا، عن «ضاحيات» اندثرت، وأخرى انطلقت وانتصرت.

تتراكم «الحضارات».. «بحثاً عن الضاحية» معرضاً موثقاً، يشكل الناس والصور وأرشيف الصحف والكتب القديمة، إضافة الى «هنغار أمم» في الغبيري (مكان إقامة المعرض).. جدرانه المفتوحة على مصراعي تساؤلات مختبئة، حيث يكمن الشيطان، أي.. في التفاصيل.

قبل دخول «الهنغار»، يخيل للزائر أن موضوع المعرض الأساس منحصر في «الضاحية»: قبل/بعد عدوان تموز. بما أن الأخير شكل حلقة مفصلية في تاريخها وجغرافيتها. إلا أن المشهد، من الداخل، ينسف تلك الفرضية.. رأساً على عقب.

فئمة «ضاحيات» بعثها المنظمون من «برازخ» النسيان، تصدم. ضاحيات استحضرت «الطرق الرملية والإقطاع و«البرونزاج» والزراعة والسينما وأخرى انتهكت لأنها «تقولب «الشهيد» الذي لا يعد لموته سلفاً ويرفض تحويل حياة أسرته الى عزاء دائم»!

تستأنف بهذا المعرض نشاطات «الهنغار»، بعد إعادة تأهيله من أضرار خارجية أصابه بها عدوان تموز الأخير.

يبدأ زمن «ضاحية أمم للتوثيق والأبحاث» (الجهة المنظمة) منذ أوائل القرن الماضي وينتهي بمشهد دمار منطقة «الشورى» في حارة حريك في صيف «٢٠٠٦». ولا وجود لزمن «الانتصار» في معادلة «ضاحية الهنغار» ومشاهدها.

«الضاحية.. بيروت الجديدة» عنوان إحدى البوسترات التي اعتمدت تقنية «الكولاج». فتحويل «الضاحية» مصر جديدة أخرى مشروع كان قد اقترحه رجل الأعمال المصري «سعادة نجيب باشا شكور». وهنا، يترك لقمان سليم (مؤسس أمم) ضيفه أمام احتمالين، ليحسم ميله السياسي، قراءة ما بين السطور: النكتة (كما ورد، تعليقاً على الفكرة، في منشور وزع عن المعرض) أو حض الجهود لتحقيق ما كان مخططاً له أوائل القرن الماضي.

«نحن هيدا ساحل المتن الجنوبي. نحن مش ضاحية. يلعن أبوهم وأبو اللي سمى ضاحية We are not ضاحية. نحن ما بدنا كلمة ضاحية...»! تلك كانت جزءاً من شهادة أحد سكان «الضاحية» الأصليين المدونة على ذاكرة «كرتونية» أخرى معلقة. إنها حتماً وجهة نظر فردية. ولا تعبر عن لسان حال السكان.

يمكن لجميع مرتادي «الهنغار» الاستماع الى شهادات مسجلة على أقراص مدمجة، أجرتها «أمم» مع «ضاحيويين» مختلفي الإيديولوجيات والانتماءات والرؤى، عبر أكثر من جهاز (DVD).

فها هو أحدهم يذكر بديموغرافيا الضاحية «الماضوي» بمزيج من النوستالجيا والألم: «قبل أحداث الـ ٧٥، كان ثلثا الضاحية مسيحيَين والثلث الباقي فقط مسلماً». ويؤكد «الشاهد» ان الهجرة السكانية، في ما بعد، لم تنل من «الضاحية فحسب» مع أنه ما حدا زعب حدا». بل طاولت معظم المناطق اللبنانية، مستشهداً بـ«برج حمود» أيضاً التي كانت ذات أكثرية مسلمة، فحولها الفرز الطائفي خلال الحرب الأهلية، مناطق من لون واحد.. بحثاً عن صفاء ديني فـ«كل واحد صار بده يعمل تجمعات له».

الناحية التجارية، سبب آخر نحا بـ«مسيحيي» الضاحية، يوافق منظمو المعرض عليه، صوب الرحيل: «المبالغ المالية المغرية التي كانت تعرض على أصحاب الأملاك». ولكن بعض هذه العائلات ظل مرابطاً كآل «كسرواني وشويفاتي وعضيمي».

المثل الصالح الذي يفتقده لبنان اليوم، يجسده ساكن «ضاحياويّ- مسيحي». أما المميز في الرواية فهو أن أبا هذا «الشاهد» اشتهر بلقب «محمد» الذي بقي يسبق اسمه الأصلي، وهو كان أول من أدرج عادة «تبادل نعي الوَفَيات» بين جميع طوائف «الضاحية». عبر «دق أجراس الكنيسة وتكبير مآذن المساجد».

الضاحية التي يبحث عنها المعرض هي ضاحية «السينمايات» و«البلاجات» و«المايوهات». فالصور الفوتوغرافية خير معبر عن الـ (New _ Dahieh) التي يفضلها «الهنغار» عن غيرها. ولأجل إنعاش الذاكرة، يعرض «هنغار أمم» صوراً لدور سينما «ضاحيوية» كـ «فينيسيا» و«الأهرام» قبل وبعد تحولها «أفراناً ومحال لإصلاح الدراجات النارية».

قد يثير مشهد شاطئ «السان سيمون» الذي يعج بالمصطافين وفتيات الـ(2 Pieces) دهشة الجيل الجديد، بين محبذ لإعادة إعمار الضاحية، على نموذج «لقمان سليم»، وبين نابذ لاختلاط «شعبان برمضان» ونسف العادات والتقاليد الشرقية والإسلامية.

«كنت جسراً. عدت جسراً. وسأبعث نفقاً» بهذه السيرة الذاتية يعرّف «جسر المطار» مفتقده عن نفسه.

خريطة للضاحية برسم اليد، محازية لأخرى فضائية مسحوبة من «الغوغل»، تتوجه بأسئلة على نحو «معلومات عامة» من وحي المعرض، الى سكان المنطقة. ومنها على سبيل المثال: اقتراحات لأماكن «تودون إضافتها» إلى الضاحية.

للمعرض بُعد ثقافي وتاريخي تقول ندى مغنيّة (مشرفة) يضيء على تغيرات ديموغرافية طرأت على تركيبة «الضاحية»، مُديناً، بحسب مغنية، ذاك «الشدخ الديموغرافي» الذي لم يرحم منطقة، بعد الحرب الأهلية، من شروره. وذلك، توضّح، لعوامل اقتصادية وسياسية وسوسيولوجية عدة، طرأت على البلاد، إثرها، فعكست ظلالها على الضاحية، كجزء من كل.

تتخلل المعرض، الذي يستمر حتى ١٦ حزيران (يونيو) «ليال سينمائية».

حارة حريك تعبق برائحة «زهر الليمون»

تغريد السميري

«كانت عائلتي من اواخر العائلات التي تهجرت من حارة حريك في ضاحية بيروت الجنوبية عام ١٩٨٣ مع الحرب الاهلية اللبنانية. بعدها لجأ المهجرون من الجنوب والبقاع الى حارة حريك التي تحولت الى مربع امني مع سيطرة حزب الله عليها».

هذه بداية قصة عائلة مسيحية عادت بالذاكرة الى حارة حريك «الضيعة» التي لم يبق منها سوى ذكريات فقط يستعيدها الاب، الام، والخالات في فيلم وثائقي بعنوان «زهر الليمون» من اخراج باميلا غنيمة والذي عرض خلال ليال سينمائية بعنوان «بحثاً عن الضاحية» في هنغار «أمم».

نقل الاب حارة حريك الى حديقته، سياجها من عواميد خشب قديمة احضرها من حارته، حتى التراب وشتلات الورود والشجر جاء بها من الحارة ايضاً. اراد ان يحفظ معالم الحارة التي اختفت كلياً الان، في شجر الرمان ودوالي العنب.

الكاميرا تتنقل بين ماضي ابو جوزيف الذي حفظه في حديقته وبين حاضره الذي يتحدث عنه في مركب صيده. يرمي ابو جوزيف في احد مشاهد الفيلم صنارته في البحر، والموج يرفع قاربه وينزله مستذكراً معالم حارة حريك «في ميزة بحارة حريك، ما فيها طلعة ونزلة، متل الكف مسطحة». ينظر الى البحر الذي يخفي معالمه في جوفه يهزّ رأسه متحسراً ويقول «بس انزل عحارة حريك وشوفا مدينة ما بصدق» يتابع «لحد ١٩٧٥ ما كان فيها طابقين، كانت كل البيوت طابق وعسطحا عريشة»، يسحب صنارته ولا تفرحه كثيراً السمكة التي اصطادها ويقول «اذا ما اثرت الحرب بالشكل تؤثر علينا بالذاكرة، بتاريخنا».

يختصر ابو جوزيف علاقته مع حارة حريك انها «صارت مع المدافن» حيث يرقد اباه وجده، فحارة حريك التي عاش وترعرع فيها لم تعد موجودة وشارع رويس الذي كان يحفظ كل حبة تراب فيه لم يعد هو، لذلك لم يعد يحب ان يزورها فحتى بيته «ما بيعرف يوصلو».

الوثائقي الذي يتناول الجانب الانساني لهذه العائلة المسيحية التي هجرت قسراً من حارة حريك، لا يتناول وجود حزب الله في حارة حريك رغم انه السبب الرئيسي في تغيير معالمها، لكن حديث ابو جوزيف في الوثائقي عن الثورة الفلسطينية والتظاهرات التي كان يصدح فيها» على خط النار عاصفة، على جبل النار عاصفة» اوصله للحديث عن حزب الله الذي شكل ظاهرة برأيه» لانو قدر يعمل سيطرة كاملة على الارض وعلى البشر» يفسر وجهة نظره «يعني صار في التزام ديني مش اخلاقي» ويختم «مع العلم انو الاخلاق قبل الدين».

لا تظهر زوجة ابو جوزيف الى جانبه الا في نهاية الفيلم عندما تذهب الى حديقته. ولكنها تستذكر هي واخواتها الثلاث في غرفة صغيرة، تفاصيل البيوت والاحياء في حارة حريك . النساء الاربع يختلفن في وجهات نظرهن فبينما تتحمس احداهن لزيارة الحارة كي تتذكر الاماكن، وتشير في الهواء بإصبعها «هون كنت انطر الاوتوكار، هون كان بيت رفيقتي»، تلوح اختها بكفها في الهواء بسرعة وتقول «ما بحب انزل لانو بنتقهر عتاريخنا اللي راح» مع ذلك يجتمعن كلهن على سرد ذكرياتهن الجميلة ووصف حارة حريك بـ«الضيعة».

الفرد الوحيد من هذه العائلة الذي بقي خارج اطار الصورة هو باميلا غنيمة ابنة ابو جوزيف وحارة حريك ومخرجة الوثائقي الذي استوحت اسمه من زهر الليمون الذي كانت تعبق به حارة حريك في الربيع.

تحمست باميلا لتصوير هذا الوثائقي كي تؤكد ان الانسان عندما يتعلق بالارض يتعلق بالحياة، واذا اضطر لترك ارضه يمكنه ان يخلق علاقة جديدة مع الارض التي هجر اليها كـ«جنينة بيي».لهذا كان الفيلم «نفحة امل» وتأكيد كما ترى غنيمة ان بإمكان الانسان «ان يفتش عن بديل» وما يستفزها ليس تغيير سكان حارة حريك «الجدد» لمعالم المنطقة بل «الحرب»، لأن «اهل الجنوب تهجروا متل ما نحنا تهجرنا».

يظهر جلياً في الفيلم ان المخرجة حاولت الابتعاد قدر الامكان عن السياسة وتوجيه التهم والقاء اللوم وهذا تؤكده مراراً فقضيتها «هي العلاقات الانسانية» والتي تراها «اقوى من الشعارات» وحارة حريك بالنسبة لها «هي ذكريات العائلة التي ورثتها ولم تعشها».

عدسة باميلا التي كانت تتحرك في ضاحية بيروت الجنوبية غرست في عيون مشاهدي الفيلم نظرة جديدة لكل صاحب «قضية» بأنه يستطيع ان يحولها الى «نفحة امل». مع فيلم غنيمة عادت حارة حريك تعبق برائحة زهر الليمون حيث عرض الفيلم.